علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ على العمارى

— ٥ —

يعيب علينا بعض الكاتبين أننا نستأنس بما كتبه المتقدمون فى مقالاتنا هذه التى ننقد بها بعض آراء الجامعة فى البلاغة ، ويزعمون أن المتقدمين كانوا أصحاب أذواق مريضة ، ومن العجب أن حجة الكاتب على مايكتب هو ماينقله عن بعض كتابنا المحدثين ، أفيحرم علينا أن نستضىء بامام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ويحل له أن يتكىء على مايقوله بعض المحدثين ؟ ليقتنا هؤلاء العلماء الاعلام الذين وجدوا فى أدب عبد القاهر وبلاغته غذاءهم وريهم ، وإذا أنكر منكر على هذا الامام شيئاً فلن يكون هذا الشيء ذوقه . يعرف ذلك العالمون المنصفون ، ثم أنى كنت اعتزمت أن أرد على هذا الذى يجادلنى على صفحات « الرسالة » ، ولم أجد سبيلا أهدى إلى الحق من أن أحتكم إلى عقول قراء « الرسالة » وكثيرون منهم يفهمون هذه المسائل على وجوهها الصحيحة ، وهى بين أيديهم .

وعجيب أن نعيب على المتقدمين جهودهم فى خدمة علوم البلاغة ونحن لم نفعل شيئاً ، لقد ظل علماء البلاغة منذ القرن الثانى للهجرة إلى أوائل القرن السابع وهم يُنشئون هذه العلوم وينمونها ، حتى اكتملت قواعدها على يد أبى يعقوب يوسف السكاكى ، فلما جاء من بعدهم من العلماء وقف بهم الاجتهاد ، ولكنهم جاهدوا وجهدوا ، وخدموا هذه العلوم بما لانرى موضعاً لتفصيله الآن ، فماذا صنعنا نحن ؟ ملأنا أذهان التلاميذ ، وغرف الدراسة بالعيب على المتقدمين والنيل منهم ، والطعن فى كفاياتهم ، ولكن من غير أن نبنى قاعدة ، أو نهدم على بصيرة ونصفة قاعدة ، وإنى لأرى خير مايتمثل به فى هذا الموضع المثل العربى : « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » .

وقد سمعت أن فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التى يسميها « حركة الرسالة » بكتاب فى البلاغة يخرجه للناس ؛ وإنا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش إلى التجديد فى هذه العلوم ، وقد تكون أول من يرفع الصوت فى امتداحه إذا وجدنا فيه مايعدون به ، ولعله لا يكون سورة لهذه الرسائل الصغيرة التى أخرجها الشيخ ونقدنا بعضها ، ثم نعود إلى مناقشته فى بعض مسائل القصر أعاما لما كنا بدأنا به .

٢ — لا يرتضى تعريف العلماء للقصر الاضافى فيطالعنا هو بتعريف آخر دعاء اليه — فيما نظن — رغبته فى أن يربط علوم البلاغة بعلم النفس وهو نوع من التجديد ، ووجد أنسب مايلصقه بالقصر الاضافى هذا الذى يسميه علماء النفس « تداعي المعانى » فما يمنع أن يكون القصر الاضافى نظر فيه إلى هذه الفكرة النفسية ؟ والذى حفظناه عن مشايخنا وقرأناه فى كتب العلماء أن القصر الإضافى يكون حين تتمثل صفتان فى ذهن ، فقد يعتقد اجتماعهما فى موصوف وأنت تريد أن تبين له خطأ هذا الاعتقاد فيكون قصر الافراد ، وقد يعتقد ثبوت احداهما دون الأخرى وأنت تريد أن تعكس عليه اعتقاده فيكون قصر القلب ؛ وقد يحار فى أمر الصفتين فاذا أثبت له إحداهما ونفيت الأخرى كان قصر التعيين ؛ فمدار القصر الاضافى اذن على صفتين أو

بالسلم كما تؤخذ سائر القضايا إلى حرب مفاسدها أكثر مما يرونه مفسدة ، فقابلهم على حرباً بحرب ، وجرى الأمر بينهم فى ذلك إلى أن قتل طلحة والزبير وعلى ، وآل أمر المسلمين بعدهم إلى معاوية .

وأما عن الأمر الثالث ، فإن معاوية لما آل الأمر إليه لم يعد النظر فى قضية عثمان ، ولا شك أنه وجد نفسه أمام جناية قتل لا يعلم القاتل فيها بيقين ، فلا يمكنه أن يأخذ أحداً فيها بقصاص ، كما وجد نفسه أمام كلمة قد اجتمعت ، وأرادت أن تنسى الماضى بما له وما عليه ، لتأسو الجروح ، وتقضى على الفتن ، فيجتمع الشمل ، ويعود المسلمون إخواناً ، ويتموا ما بدأ به السلف الصالح من الفتوح ، ويعملوا متعاونين على إعلاء كلمة الإسلام .

فلم يجد معاوية مع هذا إلا أن يترك أيضاً أمر النظر فيمن اشترك فى تلك الفتنة ، حرصاً على جمع الكلمة ، ونزل فى ذلك على مثل ما نزل عليه على ، رضى الله عنهم جميعاً .

عبد المتعال الصعيدى

أكثر في ذهن المخاطب وأمام بصيرته ، وله فيهما اعتقاد ، لكن الشيخ يقول : « وأساس القصر الاضافي مايقرره النفسيون ، ويسمونه تداعي المعاني ، أي أن المعاني يرتبط بعضها ببعض بطريقة الضدية أو المناقضة أو المنافاة أو التلازم أو التكامل . والقصر الاضافي في الكلام قائم على إفراد معنى من المعاني لا على أنه لايوجد سواه في الموصوف ، ولكن على أساس أن تبعد سواه هذا عن تفكير المخاطب ، أي أن هذا النوع حاجز بين الصفة التي تريد إثباتها للمتحدث عنه وبين ما يمكن أن يقفز إلى ذهنه من الصفات عند ذكر هذه الصفة ، فمثلا تقول ما زيد إلا رياضي ، فعند ذكر كلمة رياضي يحدث تداع في المعاني فتجول في الذهن صفات أخرى نحو مهندس . فلكي . موسيقي . مخترع . أديب ولكن إذا قصرت وأتيت بالأسلوب على هذا النحو فقد أبعدت كل هذه الوجوه » وهذا كلام واضح وصريح في أن المقصود من القصر هو إبعاد ماعسى أن يجول بذهن المخاطب من الصفات التي تتصل بهذه الصفة المثبتة ، وكأنه ليس عند المخاطب صفة ينكرها وأخرى يثبتها ، ويبني على هذا — ولا شك — فساد هذا التقسيم الذي ذكره العلماء للقصر الاضافي . وقبل أن نرد على الشيخ نحب أن نذكر له وان يعيب علينا استدلالنا بكلام المتقدمين ، أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، تنبه لهذه الفكرة ، ولكنه لم يكن يعرف تداعي المعاني أو تناديها فلم يملأ الجو صياحا وعجيجا ، بل مر يذكر المسألة في بساطة وسهولة فقال في كتابه دلائل الاعجاز «واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخر نحو ما زيد الا قائم » أنك اختصصت القيام من بين الاوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ونفيت ماعدا القيام عنه ، فانما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالساً أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك ، ولم نرد أنك نفيت ماليس من القيام بسبيل إذ لسنا ننفي عنه بقولنا : ماهو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيراً أو عالما أو جاهلا ، كما أنا إذا قلنا : ماقائم إلا زيد لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواه ، وإنما نعني ماقائم حيث نحن ويحضرتنا وما أشبه ذلك » ونلاحظ أن الشيخ عبد القاهر كان دقيقا كل الدقة فلم يقل إن هذا في القصر الاضافي ، وانما ساقه على أنه فكرة عامة في القصر ، وأمثلته صالحة لأن تكون قصرا حقيقيا تحقيقيا أو ادعائيا ، وأن تكون للقصر الاضافي ولكن بشرط أن يعين المخاطب في ذهنه المثبت والمنفي . ثم نرد على الأستاذ فنقول له : ارجع إلى شواهدا لقصر الاضافي فسترشدك إلى أن النزاع يكون في شيئين ماثلين في ذهن المخاطب ، ولنسق نحن جملة من الشواهد الفصيحة يقول الله تعالى : إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير . ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا . لايستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . ويقول صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب . إنما أنا قاسم والله يعطي . وهكذا إذا تتبعنا الأمثلة التي صرح فيها بالمثبت والمنفي وجدنا أن كليهما معلوم للمخاطب وله فيه نظرة ، فاذا كان المنفي عاما لم يكن هذا من القصر الاضافي ، ولذلك يقول بعض العلماء إن قول الغطمّش الضبي :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

من القصر الحقيقي ، ولست — والله — أدري من أين جاء للشيخ أن الغرض من القصر الاضافي أن نحول بين ذهن السامع وبين صفات أخر تتوارد عليه لها بهذه الصفة المثبتة صلة ورباط ؟ !

٣ — وقد انتهى العلماء منذ زمن بعيد من تقسيم القصر الاضافي ، ووقفوا عند قصر الافراد والقلب والتعيين باعتبار حال المخاطب في اعتقاد الشركة أو العكس أو التردد ، ولكن الأستاذ يتنبه إلى أن القسمة العقلية كانت تقتضي قسما رابعاً وذلك في حال ما إذا كان المخاطب خالي الذهن ، ويعنى على العلماء اهمالهم هذا القسم الرابع يقول « وعلى ذلك يتضح لنا أن اغفال الحالة الرابعة وهي حالة خلو الذهن في باب القصر غير مبني على نظر صحيح » . « فمثلا يجوز لك أن تقول لخالي الذهن عاما : لا اله إلا الله اعتمادا على ما يقدرونه في علم النفس من أن الخطأ الأول يصعب إصلاحه ، والصورة الأولى يسير محوها » .

« أما نحن فنقول لهم إن أسلوبكم يقتضي أن ترددوا مواقف المخاطب بين هذه الأحوال الأربعة فلم أغفلتم الحالة الرابعة ؟ » والذي نؤكده أن تقسيم العلماء مبني على نظر صحيح ، وأنه لاحالة

رابعة هناك حتى نتهمهم بأنهم أغفلوها ، وأدنى نظر فى طبيعة القصر الاضافى يرشدنا إلى ذلك فلا يدفعه أن يكون المخاطب عارفا بالمثبت والمنفى فأنت تقول له : شوقى شاعر لا كاتب إذا كان يعلم هاتين السفتين فى شوقى فيثبتهما معا أو ينفى احداهما أو يتردد فيهما ، أما إذا قلت له هذا القول وهو يجهل كل الجهل شاعرية شوقى وكتابته كان كلامك خلفاً من القول ، وبعيدا عن اعتبار البلغاء ، فاذا أردت أن تلاحظ هذه العلة النفسية ، وأن تؤكد له من بادىء الأمر رجعنا إلى جهة أخرى وهى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، ويقال حينئذ إن المتكلم نزل المخاطب الخالى الذهن منزلة المنكر أو المتردد أو العاكس ويرجع الأمر إلى قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، والعلماء إنما يذكرون القاسم الأصلية ، أما الأمور المنزلة فيرجعونها إلى مشابهاتها ، ومعروف ذلك عند من درس فهم يجعلون أضرب الخبر ثلاثة ، ثم ينزلون المنكر منزلة غير المنكر ، وينزلون غير المنكر منزلة المنكر ، وهكذا . ولا يحق لنا أن نقول إن هذه أضرب أخرى للخبر ، على أن المثال الذى ذكره الأستاذ (لا اله الا الله) لخالى الذهن لا يصح مطلقاً أن نجعله من القصر الاضافى ، وانما القصر فيه حقيقى تحقيقى ، وهذه الأقسام الثلاثة كما هو معروف لاتتأتى فى القصر الحقيقى .

٤ — وهذا بحث جديد يريد أن يطالعنا به أستاذ الجامعة . العلماء قصروا فى أغراض القصر ، وحصروها فى النفى والاثبات وهو أمر يجب أن نؤاخذهم به « والذى نأخذه على صاحب الايضاح ومن لف لفه من البلاغيين أن شعورهم كان يجب أن يتسع حتى يشمل ماوراء القصر بانما من أنواع القصر ، فكان يجب أن يوسعوا حسهم اكثر من ذلك فليس القصر للاثبات والنفى بل هو للتضييق والتحديد » . « فلعله ثبت مما قلناه إن للقصر مرامى أخرى وراء المعنى النحوى أهملها البلاغيون » وهذه الأغراض التى ذكرها ومثل لها هى غرضان : التوهين ومثل له بقوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » والتأنيب ومثل له بقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » قال : إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وجدنا أن التعبير بكلمة رسول عنصر أساسى فى المعنى قصد به التوهين من شأن الرسول فى هذا المقام . محمد رده يطلع إليه ؟ مرسال زى بقية المراسيل بيجى ويروح . القصر هنا واضح فى أن المقصود به التوهين من أثر الرسول فى الدين ولذلك جاءت تسميته هنا برسول ولو قال نذير . هاد . سراج . لقطع الطريق على هذا الغرض » وقال : « ماقلت لهم . . الآية . هذا التأنيب المؤلم مستفاد من وراء الألفاظ ، وهو هنا المرمى البلاغى للقصر وبدل عليه » وقبل أن نرد على هذا الكلام التداعى نذكر ماقاله العلماء فى أغراض القصر حتى ننفى عنهم تهمة أنهم ضيقوا حسهم أو قصروا . قالوا من دواعى القصر (١) داعى القصر الحقيقى التحقيق بيان الواقع (٢) داعى القصر الادعائى المبالغة وعدم الاكتراث بما عدا المقصور عليه (٣) الرد على المخاطب فى قصر القلب وقصر الأفراد (٤) تعيين المبهم عند المخاطب فى قصر التعيين (٥) قد يقصد من القصر مجاراة الخصم (٦) التنبيه على أمر هو مقتضى الكلام والغرض منه وجعل القصر وسيلة اليه وذلك كثير فى انما (٧) تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لاعتبار مناسب فيخاطب باسلوب القصر [١] .

أما ردنا على ما ذكره من أغراض فواضح أنه ليس القصد فى الآيات الاولى الحط من مقام الرسالة فى الدين ، وهل يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول إن محمدا ليس شيئاً ؟ ! لا . ياشيخ ! المسألة أن الله يقول لهم : لامعنى لتعلق الدين بمحمد فان الرسل قبله ماتوا وسيموت هو مثلهم ولا ينتهى الدين الذى يدعون اليه بانتهائهم لأن مهمتهم الرسالة والتبليغ ، والرسالة ولو أنها أمر له قيمته وخطره لكن لايجب أن يتعلق ايمان الناس بمدة حياة صاحبها فهو انما يدعو الى الله . ولعل مما يدل على ذلك أن العرب لم يفهموا أن القصد التوهين من شأن الرسالة ، وهذا أبو بكر يستشهد بها يوم وفاة الرسول ، فهل كان يريد أن يقول لهم : إن محمدا ليس شيئاً فى الدين ؟ مانظن ذلك ولا نرضى لمسلم أن يظنه . وأما التأنيب فى الآية الثانية فليس مستفاداً من القصر وإنما هو مستفاد من السياق . استفهام تعجبى ، واتخاذ آلهة من دون الله ، وهو صادر عن النبى ، وهو المدعى عليه أنه دعاهم

(١) مذكرات الشيخ سليمان نوار ص ١٨٨